«أبنية مهملة» تسكنها الريح في لبنان الجريح

اللانهائية المُلتبسة تبرز شكلا ومعنى في معرض غادة زغبي

يتواصل حتى السابع عشر من نوفمبر الجاري في صالة "جنين ربيز" البيروتية معرض للتشكيلية غادة زغبي حمل عنوان "أبنية مهملة"، ثابرت فيه الفنانة اللبنانية على تقديم أعمال فنية مستقاة من الواقع وبأسلوب واقعي يُحيل في واقعيته المتطرفة إلى عوالم داخلية ومواقف خاصة من العالم المحيط.

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

بيروت - يدور المعرض الجديد لغادة زغبي المقام حاليا في صالة "جانين ربيز" البيروتية حول موضوع عنونته الفنانة التشكيلية اللبنانية بـ"الأبنية المهملة"، ضمّ ستة عشر عملا فنيا مشغولا بمادة الأكريليك وبضعة أعمال أخرى على ورق مشغولة بالفحم وبألوان الأكريليك. وقد تميّزت هذه الأعمال بحدّة خطوطها وسلطة تمركز مشاهدها وسط اللوحة.

وقدّمت زغبي معرضها بهذه الكلمات "كنت أمشي في شوارع المدينة، أقف مليا أمام المشاريع المبتورة، نصف المنجزة: هل هذه أحلام مجهضة؟ توقٌ مبتور أو أطفال متروكون؟ لماذا نبني هذه المشاريع ثم نتركها للدمار؟ والأهم لماذا يبدو الهجران كأنه صنوٌ للتدمير، تماما مثل الإجهاض؟".

الفنانة تسائل عبر لوحاتها بيروت وأبنيتها المهملة، لماذا يبدو الهجران كأنّه صنوٌ للتدمير، تماما مثل الإجهاض؟

أسلوب مُوارب

تضع الفنانة اللبنانية زائري معرضها أمام تقنية فنية عالية جدا حقّقتها حتى في معرضها الفني الأول الذي جرى في غاليري "آرت سبيس الحمرا" تحت عنوان "أنظمة الشخصي"، حيث عرضت في كل لوحة خزائن واقعية جدا ولكن مُوارِبة، لأنها مفتوحة دون أي تحفظ، كما عرضت كل محتوياتها التي تدفقت إلى خارج الخزائن، وبالرغم من ذلك ظلّت سرّية، لأنها أغرقت الناظر إليها في سيل من تفاصيل ملوّنة تشتّت الذهن وتحضّه على استخلاص المعنى الساري في تلافيف أغراض الخزانة وماهيتها.

وهي اليوم في معرضها الجديد تتّبع الأسلوب المُوارب ذاته، الذي يصطدم فيه الواقعي البحت بإحالات عديدة هي أبعد بكثير ممّا تراه العين.

كما ذكرنا آنفا، لوحات الفنانة الجديدة تحضّ الناظر إليها على استنباط المعنى ممّا يبدو ظاهريا أنه تجسيد لعمارات مختلفة جرى بناؤها وأهملت، فلم تُتم ولم تُسكن وتُعمّر.

وللتأكيد على هذه المسألة طرحت الفنانة أسئلة في بيانها الصحافي الخاص بالمعرض، أهمها هذا السؤال/ التساؤل "لماذا يبدو الهجران كأنّه صنو للتدمير، تماما مثل الإجهاض؟". وحاول وسيحاول كل من زار معرضها أن يُجيب على هذا السؤال المُفخّخ حتما.

بداية يمكن القول إنه بالرغم من كون الفنانة وضعت تلك الأعمال تحت عنوان "العمارات المهملة" لتدلّ مُشاهدي لوحاتها على أنها عمارات بدأ العمل عليها فأُهملت، إلاّ أنها فتحت لهم الطريق إلى التساؤل عن تلك العمارات: هل الإهمال هو الوصف التام لحالة العمارات؟

لا شك في ذلك إن توقّف المُشاهد عند حدود واقعية المشهد. لكنْ ثمة أمر آخر لا يلبث أن يتكشّف ويدعم وجود "أمر آخر"، فخلفيات تلك العمارات خصّصتها الفنانة لسماوات مزدحمة بالتعبير! سماوات أبوكالبتية متواطئة مع هيئات تلك الأبنية المُثيرة للريبة.

أبنية تشبه البشر في دماره وعدم اكتماله

إنشاء مُضاعف

عمارات زغبي تبدو وكأنها غير مُكتملة، ولكنها "مُكتملة". إنها عمارات ليست مُهملة ولا مُعدّة لترميم لم ولن يحدث. فهي تبدو وكأنها صُمّمت لتكون هكذا في صيغة لا نهائية. ولكن لماذا تطلّ علينا هذه العمارات البارزة بسلاسلها الفقرية وهياكلها الحديدية كحالة كاملة لا تنتظر مرحلة نهائية؟

عمارات أُنجزت لتكون غير منجزة بشكل يجعلها غير قابلة للسكن، فأصبحت دليلا على زمن هامشي لا يعوّل عليه، وقد انتقل إلى وتيرة حياتنا اليومية المنهمكة بتفاصيل ومهمات تُعتبر من البديهيات في مدن العالم.

ولطالما كان "الواقع" في اللوحات السابقة للفنانة هو الدرجة الأولى والأخيرة من سلم تشكيلاتها الفنية المُعبّرة، إنه العتبة التي تنطلق منها الفنانة لتوغل بعيدا في الإحالات النفسية والفلسفية والاجتماعية والسياسية.

ويلعب اللون البني دورا هاما جدا في تمكين هذه الفكرة المذكورة آنفا، وإن كانت وفْرته قد خنقت معالم لوحاتها. يحضر دائما اللون البنيّ بشكل مراوغ مُطعّما بالوردي، بالبنفسجي، بالأصفر، بالأحمر، وبالأسود وبالأزرق المعدنيّ الذي يفتح فوهات في تلك الأبنية كأنه يسمح لها بالتنفس، ولكن فقط بالقدر الكافي، لتبقى صامدة بوهمه (أي وهم الزُرقة) الذي يخترق الأفق في أوجّ الاختناق.

حتى الهواء يشي بالفكرة ذاتها، يحيط بتلك المنازل ثقيلا على كاهل العمارات، يتخلّلها ويتسلّل إلى جميع مساماتها مُثقلا بذرات الجوّ والغبار، ومحمّلا بالمعاني والإيحاءات الكئيبة.

لوحاتها تلك لا يمكن استيعاب قدراتها الإيحائية، والتي حتما تعتمد على قراءة المُشاهد الشخصية والمطلعة على أعمال أخرى لفنانين لبنانيين (أعمال كثيرة جدا) رسموا فيها البيوت اللبنانية التقليدية في تألقها، أو تعرّضها للإهمال أو التدمير أو الترميم. هذه اللوحات على الرغم من جماليتها لا تأخذنا إلى أبعد منها، خلافا لعمارات غادة زغبي.

ويأتي هنا ما نحبّ أن نسميه بالإنشاء المُضاعف، وهو يكثّف رمزية هذه الأبنية. الإنشاء الأول هو لمظاهر الأبنية المباشرة. أما الثاني فهو للعمل البشري الواضح من خلال الأعمدة الحديدية المنصوبة خارج المباني من أجل مهمة عُمّال البناء. لا نراهم في اللوحات، ولكن نعلم أنهم نصبوا هياكلهم تلك على أتم وجه (خلافا للعمارات) وغادروا.

غادروا لأن العمارات في حالتها "غير المنتهية" هي النهائية؛ لأن أصحابها أو عمّالها أو مالكوها أرادوا أن تكون على تلك الشاكلة: مجرد مشاريع بناء مرصودة للاضمحلال.

البناؤون/ المالكون/ الساكنون/ الغامضون/ المجهولة أسماؤهم والمعروفة إخفاقاتهم في مجال "الوطنية" صنعوا قدر تلك العمارات، كما صنعوا عمارات بنيت وأهملت.. فلم تُتم ولم تُعمّر

حياتهم وحياة الآخرين التي يخيّم عليها اليوم ظل انفجار مرفأ بيروت في الرابع من أغسطس 2020. كم يشبهوننا هؤلاء، نحن الذين لم نبدأ بأي إنشاء واعد إلاّ وهدّمناه وجعلناه عبرة لمن اعتبر بشكله وحياته المدمّرة بصيغتها النهائية.

> عمارات زغبي أُنجزت لتكون غير منجزة بشكل يجعلها غير قابلة للسكن، كدليل على زمن هامشي لا يعوّل عليه

والفنانة غادة زغبي من مواليد شمستار البعلبكية التي أنجبت الكثير من الفنانين الموهوبين، وهي حاصلة على شهادة في الفنون الجميلة من الجامعة اللبنانية التي خرّجت أفضل الفنانين اللبنانيين على الإطلاق بالمقارنة مع باقي جامعات لبنان الخاصة، حتى يكاد فنان "الجامعة اللبنانية" يُعرف من أول نظرة إلى لوحاته.

معرض فني في الجزائر يستعيد أجواء فيلم «جبل باية» بملحمته البربرية

الجزائر - يشكّل المعرض الثنائي للتشكيلي الجزائري كمال بلطرش وزوجته الفنانة الروسية ماريا إلتسوفا، المقام حليا في المركز الثقافي مصطفى كاتب بالجزائر العاصمة، نافذة مشرّعة للاطلاع على واحة لونية تعجّ بالتراث الجزائري العريق وأيضا استحضارا لروح الراحل عزالدين مدور مخرج فيلم "جبل باية" (إنتاج 1997).

وتتزيّن جدران قاعة العرض التابعة لمؤسسة فنون وثقافة في محافظة الجزائر بأكثر من أربعين لوحة فنية من مختلف الأحجام والألوان تمكّن من خلالها الزوج الفني بلطرش وإلتسوفا من استقطاب اهتمام الجمهور الذي غاص في تفاصيل اللوحات الفنية بتقنية الستوري بورد (القصص المصوّرة) التي صمّمها الفنان كمال بلطرش باحترافية ودقة عالية، وتروي بالريشة واللون جزءا من مخطط سيناريو فيلم "جبل باية" للمخرج الراحل عزالدين مدور.

كما أبدعت زوجته الفنانة ماريا إلتسوفا في رصد أزقة حي القصبة العريق وغرايات ووجوه نسائية من القصبة، وكذلك رقصات نساء الطوارق ومختلف الطقوس الأمازيغية الاحتفالية.

وقال بلطرش إنه أراد من خلال عرض جزء من أعماله الفنية -التي صممها لفيلم "جبل باية"، وتعتمد على تقنية القصص المصوّرة المعروفة في مجال الإخراج السينمائي- تكريم المخرج مدور الذي ترك بصمته في المنجز السينمائي الجزائري بأعماله التي تعجّ بالتاريخ وعناصر التراث، حيث شكّلت تجربة التعاون الفني مع المخرج محطة مميّزة في حياته الفنية.

وقام بلطرش بتصميم لوحات فيلم "جبل باية" بتقنية الأكواريل (الألوان المائية)، وهي عبارة عن رسم تمثيلي لمختلف لقطات الفيلم توضّح الأجواء الاجتماعية والثقافية والمضامين التاريخية الأصيلة فيه، حيث تمّت مراعاة التسلسل الزمني لأحداث الفيلم وشخوصه.

وأكّد الفنان الجزائري -الذي درس في أكاديمية الدولة للفنون التشكيلة سوريكوف بموسكو- أن الأعمال المعروضة استغرق العمل على تنفيذها سنتين من البحث الحثيث في مكوّنات وخصائص المواقع التي تمّ تصوير اللقطات فيها، وأيضا البحث في عناصر اللباس التقليدي والحلي والعمران ومشغولات الصناعة التقليدية وغيرها من الطقوس الاحتفالية والرموز التي تؤثّث يوميات شخوص العمل الفني، وقد اعتمدها المخرج الراحل مدور لإنجاز فيلمه الشهير.

لوحات تستلهم من عالم السينما مفرداتها التشكيلية

ويسرد فيلم "جبل باية" -الذي صاغ فكرته الرئيسية وأخرجه المخرج الراحل مدور المتوفى في عام 2000، أي بعد ثلاث سنوات فقط من إنجازه فيلمه الناطق بالأمازيغية- حكاية تدور فعالياتها خلال السنوات الأولى من التواجد الاستعماري في الجزائر، وتتبّع فيه مدور قصة باية المرأة الجميلة الأصيلة التي قتل زوجها أمام عينيها من قبل ابن الباي الموالي للمستعمر الفرنسي والذي يريد فيما بعد إجبارها على الزواج منه.

غير أن باية ظلت عدة سنوات صامدة في وجه كل الأصوات التي تريد دفعها إلى قبول هذا الزواج، بمن فيها سكان القرية الذين أهلكهم حرمانهم من أراضيهم وتهجيرهم منها من قبل المستعمر ومعاونيه ومنهم الباي والد القاتل، كما بقيت متمسّكة بروح الانتقام لموت زوجها من خلال إعداد ابنها الوحيد لهذه المهمة، والذي نجح في الثأر لدم أبيه المهدور، حيث تمكّن من قتل ابن الباي ليلة زواجه، لتكون نفس الديّة التي تلقتها باية في زوجها هي ديّة المقتول لوالده.

والفيلم يكشف على مدار ما يقارب ساعتين من الزمن مدى تعلق سكان منطقة القبائل الوثيق بعاداتهم وتقاليدهم، ومنها موضوع الوفاء للزوج ومقاومة المستعمر والتعلق بالأرض والتكافل الاجتماعي الذي يظهر من خلال التعاون في بناء المنازل وممارسة النشاط الفلاحي بشكل جماعي، كما يركّز الفيلم على الصورة والبعد الرمزي بدل التصريح المباشر، مثل استحمام الشابة في النهر الذي كان يرمز لدى سكان المنطقة إلى استعدادها للزواج، أو حرق برنسها مثلا في حالة رفض ذلك.

وعزالدين مندور من مواليد عام 1947 في منطقة سيدي عيش بمحافظة بجاية، درس الأدب الفرنسي في جامعة الجزائر، ثم تخصّص في دراسة السينما في جامعة موسكو بروسيا في السبعينات، واستطاع بعد عودته إلى الجزائر أن يخرج العديد من الأفلام القصيرة للمؤسسة الوطنية للإنتاج السمعي البصري، بالإضافة إلى العديد من الحصص التلفزيونية والأفلام الوثائقية، من بينها "الفتاة والفراشة" (1982) و"كم أحبك" (1985) و"وقائع وحقائق" (1990) و"أسطورة" (1991) و"جرجرة" (1992).

ماريا إلتسوفا

> الجزائر بتاريخها وضوئها شكّلت محطة مهمة في مسار الفن الاستشراقي

وتوفي مدور في السادس عشر من مايو عام 2000 عن عمر ناهز اثنتين وخمسين سنة، بسبب خطأ تقني أدّى إلى انفجار في أحد مواقع التصوير.

ومن جهة ثانية عرض بلطرش الذي يعمل في المجال السينوغرافي بالتلفزيون الجزائري لوحات فنية تخصّ اللباس التقليدي الجزائري، وكذلك ثلاث لوحات فنية تعجّ بالرمزية، وهبي بمثابة صرخة وحلم إنساني. وبفضلها توّج بالمرتبة الثانية في مهرجان ومسابقة افتراضية دولية ببريطانيا في مجال "فنون الخشبة"، فيما توّجت زوجته إلتسوفا بالمرتبة الأولى.

وبدورها اعتمدت التشكيلية إلتسوفا التي شاركت في العديد من المعارض الدولية على أسلوب خاص وفق رؤية جمالية مُبتكرة، أين شكّلت المرأة والمناظر الطبيعية والتراث والتاريخ الجزائري من الجنوب إلى القصبة مرورا بغرايات مادة فنية خصبة، مستعملة في ذلك تقنية الألوان الزيتية.

وتعرض الفنانة في المعرض الثنائي لوحات متنوّعة رسمت فيها أجواء عرس في واحة بتمنراست وعزفا لنساء تارقيات على الآلات الموسيقية التقليدية -كآلة الأمزاد والتيندي- وهنّ يرتدين أبهى اللباس التقليدي والمجوهرات الفضية. وقد نجحت في تشكيل ملامح الوجوه وحركات الأيادي إلى جانب اهتمامها الخاص بالقصبة وأزقتها والنساء اللاتي يرتدين لباس الحايك الأبيض والواجهة البحرية للجزائر العاصمة.

وأكّدت الفنانة الروسية أنها تستلهم مواضيع أعمالها الفنية من التراث الجزائري الذي يتميّز بثراء عناصره وأجوائه، قائلة "الجزائر بتاريخها وعراقتها وضوئها ومعمارها شكّلت ولا تزال تشكّل محطة مهمة في مسار الفن الاستشراقي، حيث استقطبت نخبة من أهم الفنانين في العالم، أثرت في توجهاتهم الفنية على غرار الفنان إيتيان دينيي وديلاكروا".

وتعايشت إلتسوفا مع البيئة الجزائرية وأبهرها سحر القصبة وأناقة المرأة الجزائرية بخصوصيتها التقليدية التراثية، وقد صوّرتها في مجمل أعمالها الفنية وقدّمتها للمجتمع الروسي في مختلف معارضها الفردية التي جذبت اهتمام النقاد والمتذوّقين الذين تعرّفوا من خلال هذه المعارض على التنوّع البيئي والثقافي الذي تمتاز به الجزائر.